الفصل الخامس

الطرد إلى الأرشيف الحكومى

إذا جاز لى أن أصف أولى خطواتى فى هذا الجهاز بكلمة معبرة فهى «أول القصيدة كفر».

كانت المكاتبات الإدارية بين الأمانة العامة لرئاسة مجلس الوزراء، والجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، تجرى من وراء ظهرى منذ شهر ديسمبر من عام ١٩٨٣، من أجل ترتيب الإجراءات المتعلقة بنقلى النهائى، وبناءً عليها صدر القرار الإدارى رقم (٦٠) لسنة ١٩٨٤، فى الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة، بنقلى إلى إحدى إدارات الجهاز، وذلك بدءًا من يوم السادس من يناير من ذلك العام.

ومنذ ذلك التاريخ ترددت على مبنى الجهاز أكثر من ثلاث مرات، أتجول فى طوابقه العشرة، وأتطلع فى وجوه موظفيه، وأذهب إلى المختصين فى إدارة شئون العاملين، وقبل أن يأتونى بأوراق استلامى العمل، كنت ألوذ بالفرار، هاربًا لا أعرف على أى شىء سوف أستقر.

وقد تكرر هذا المشهد عدة مرات، وأنا لا أكاد أتصور وجودى فى هذا المكان المزدحم بالبشر، والصاخب بصورة غير متصورة، واستمر هروبى حوالى تسعة عشر يومًا كاملة.

وللمرة الرابعة، نسيت بقوة الأقدار وإرادتها أمر وظيفتى المحجوزة فى الجهاز المركزى للمحاسبات.

وأخيرًا، تحاملت على نفسى، وتوجهت إلى مبنى الجهاز على رغبة باستلامى العمل، وقامت إدارة شئون العاملين بتعديل قرار إلحاقى من إدارة التدريب، إلى الإدارة المركزية للمعلومات، أو ما كان يسمى اختصارًا «مركز المعلومات»، وكان هذا أيضًا من تصاريف القدر، ورحمتها.

وكان من مقتضيات الأمور، أن يجرى إحالتى إلى إدارة التحقيقات، بسبب انقطاعى غير المبرر عن العمل طوال هذه الفترة الممتدة من العاشر من يناير إلى التاسع والعشرين منه، ووسط أخبار نشرت فى بعض صحف المعارضة (جريدتى الشعب والأهالى) حول ظروف نقلى من رئاسة مجلس الوزراء، جرى التحقيق معى، وأبدى المحقق الذى كان حريصًا على قراءة تلك الصحف، بعضًا من التعاطف، فحاول أن يتولى بنفسه صياغة إجاباتى على الأسئلة بحيث يجنبنى كل ما من شأنه توقيع جزاء إدارى ضدى.

وانتهى التحقيق بخصم أجر المدة التى انقطعت فيها عن العمل خلالها دون جزاءات إدارية أخرى. (وثيقة رقم ١١).

وكان علىَّ الانتظار عدة أيام حتى يستقر أمر وجودى فى مركز المعلومات بالجهاز، ومقابلة رئيس الإدارة المركزية للمعلومات وكان بدرجة (وكيل وزارة)؛ من أجل التعارف وتحديد طبيعة المهام الوظيفية التى سوف توكل إلىَّ، وكان هذا من أفضل ما حدث فى حياتى الوظيفية كلها.

أمضيت تلك الأيام قابعًا فى مكتبة الجهاز بالطابق الثانى، وبرغم تواضع تجهيزاتها فإن القائمين عليها من فتيات متخصصات فى علم المكتبات، تقودهم سيدة محبوبة من الجميع حتى أطلق عليها العاملون (الحاجة سعاد)، كل هذا جعل المكتبة مصدرًا مهمًّا ليس للاطلاع والمعرفة فحسب، وإنما للعلاقات الإنسانية والاجتماعية للكثيرين.

وهكذا وجدت نفسى غارقًا فى عملية بحث شاقة حول رؤية الصحف والمجلات الأجنبية للصراع العربى ـ الإسرائيلى أثناء غزو لبنان، وقد اتخذت من المجلة البريطانية المتخصصة فى عالم الاقتصاد، والمعروفة برصانتها التحريرية «the economist» نموذجًا للبحث والدراسة، وكنت بهذا أستكمل العمل الذى بدأته منذ أواخر عام ١٩٨٢ فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام وبمشاركة الزميلين «سيد زهرة» و «دينا الخواجه»، وتحت إشراف «الدكتور على الدين هلال» وكان موضوعه

«اتجاهات الصحافة فى إسرائيل أثناء غزو لبنان» والذى صدر فعلًا فى كتاب من إصدارات المركز فى منتصف عام ١٩٨٤، وكان بهذا أول كتاب أشارك فى تحريره.

ومن النوادر التى ينبغى أن تروى، ما جرى مع الدكتور «على الدين هلال» فى مساء أحد أيام شهر ديسمبر من عام ١٩٨٢، وكان فريق البحث قابعًا بالطابق السادس فى انتظار حضوره، وإذ به يفتح الباب علينا، متهللًا بشوشًا، وما كاد يجلس إلا ورن الهاتف، وكان على الجانب الآخر مدير المركز «السيد ياسين» يسأل هل حضر الدكتور «على»، أم ما زال متأخرًا، ولم نكن ندرى أن سر هذا الاهتمام هو، معرفة نتائج أول لقاء شخصى بين الدكتور «هلال» والرئيس الجديد «حسنى مبارك»، الذى أعجبته إحدى المقالات التى كتبها الدكتور «هلال» فى جريدة الجمهورية، فسأل الدكتور «بطرس بطرس غالى» وزير الدولة للشئون الخارجية، وأحد أقرب معاونيه فى ذلك الوقت، عن «هلال» هذا، فأخبره «غالى» أنه أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، وزاد عليها، أنه أحد تلامذته، فطالبه مبارك بتنظيم موعد مع هذا الأكاديمى اللامع للتعرف عليه، وقد كان.

اختطف «على الدين هلال» سماعة الهاتف من يدى «سيد زهرة»، وأخذ فى محادثة «السيد ياسين» حول اللقاء باختصار، ثم أخبره، أنه سيحضر إليه فى مكتبه بالطابق الخامس، بعد انتهاء الاجتماع مع أعضاء الفريق البحثى.

وبهذا عرفنا توًّا ـ بمحض الصدفة ـ قصة أول موعد و لقاء بين رئيس الجمهورية الجديد وأحد المثقفين المصريين والأكاديميين اللامعين فى ذلك الحين.

كان «هلال» مسحورًا باللقاء، فنسى نفسه، وأخذ يروى لنا بعضًا من التفاصيل، وأنا هنا أرويها لكم حتى نتعرف على كيفية تصرف المثقفين المصريين وعاشقى السلطة؛ وكأنهم فراشات نار، يظنونها نورًا!.

روى لنا أستاذ علم السياسة الشاب، والقادم توًّا من الولايات المتحدة حيث أكمل دراساته العليا، عن قصة اللقاء، وكيف استقبله الرئيس، ثم أخذ يتغنى بالرجل من حيث البساطة، فكما قال:

لقد أمسكت بيديه، عدة مرات .. لقد كان الرجل بسيطًا جدًّا.

ودفعه انبهاره بالرجل - والحقيقة بسلطة الرجل - إلى الاستغراق فى تفاصيل اللقاء، من قبيل كيف أمسك «هلال» بذراع الرئيس، وكف الرئيس؛ ليقاطعه أحيانًا أو يوضح له بعض آرائه.

وقبل أن ينتهى اللقاء، بادر الرئيس «الدكتور هلال» بالسؤال:

- أنت عندك كم سنة يا دكتور على؟

فاجأ السؤال الرجل فأجاب بسرعة:

- عندى اثنان وأربعون عامًا يا سيادة الرئيس.

ضحك الرئيس قليلًا ثم علق قائلًا:

- ياه دا أنت لسه صغير يا على .. لا لسه شويه يا على.

أربكت ملاحظة وتعليق الرئيس الدكتور على الدين هلال فسارع بالقول:

- لا يا سيادة الرئيس، أنا مش عاوز منصب وزارى، أو شىء من هذا القبيل، أنا دورى أن أكون مفكرًا، وأستاذًا فى الجامعة.

لم يصدق مبارك الأستاذ الجامعى، الذى أنهكه اللهاث لمدة عشرين عامًا منذ أول لقاء له مع الرئيس، حتى عين أخيرًا وزيرًا للشباب والرياضة فى أواخر عقد التسعينيات، ومسئولًا عن تثقيف نجل الرئيس سياسيًّا وإعداده لخلافة والده فى حكم مصر، ضاربًا

بذلك عرض الحائط بكل ما تعلمه فى الولايات المتحدة، وفى مقالاته ودراساته المنشورة حول الديمقراطية والتداول السلمى للحكم.

انتهت رواية الدكتور على الدين هلال لنا عند هذا الحد، ثم توجه من فوره إلى مكتب «السيد ياسين» ليروى له كل الحكاية.

لم يكن «على الدين هلال»، صادقًا أبدًا فيما ذهب إليه بشأن دوره كمفكر سياسى وأستاذ جامعى، لقد فعل المستحيل، وتنازل عن كل ما بشر به تلامذته فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية حول الديموقراطية، ولم يهدأ حتى حصل على هذا المنصب الوزارى، برغم الاستخفاف الذى قوبل به حينما وافق على تولى منصب وزير الشباب والرياضة، دون أن يكون قد مارس يومًا لعبة رياضية واحدة، وبعد نحو عشرين عامًا من هذا اللقاء.

كما أصبح الرجل أداة من أسوأ الأدوات التى استخدمها نظام الرئيس مبارك وعائلته، حينما قبل أن يكون بوقًا ومنظرًا ومفلسفًا لفكرة «توريث العرش الجمهورى» من مبارك الأب إلى طفله المدلل والمشكوك فى كفاءته وأهليته، والمرتبط بدوائر المال والأعمال المشبوهة فى الداخل والخارج.

على أية حال، حان موعد لقاء التعارف بين وكيل الوزارة «الأستاذ أحمد كمال الدين فهمى» وبينى، الرجل له من الوقار والهيبة، بقدر ما يحمل من قلب عطوف وقدرة على اتخاذ القرارات الصعبة، ورعاية مصالح مرءوسيه.

مكتب كبير، وحجرة واسعة، وقاعة تتوسطها منضدة كبيرة للاجتماعات، يجلس الرجل كما هى عادته، على مائدة الاجتماعات، ويتجنب المكتب الضخم، الذى لم أشاهده يومًا ـ على مدى أربعة سنوات قضيتها معه ـ يجلس عليه، وعندما أطمئن الرجل إلىَّ، أجابنى على سؤال:

– لماذا لا تجلس أبدًا على مكتبك؟

– عشان ده ...!

وأشار إلى صورة رئيس الجمهورية التى تتصدر رسميًّا أعلى مكاتب المسئولين فى الدولة كافة، لقد آثر الرجل أن يجلس طوال هذه السنوات على مائدة الاجتماعات، وفى مقعد غير مريح، من أجل أن يتجنب الجلوس فى مكتب تعلوه صورة الرئيس حسنى مبارك.

استقبلنى الرجل ببشاشة، وإن كانت مصحوبة بقدر من الحذر، فالمعلومات المتناثرة عنى لا تطمئن كثير من كبار الموظفين ـ وصغارهم ـ بشأن نقلى من رئاسة مجلس الوزراء بسبب نشاطى الشيوعى.

أجلسنى إلى جواره، ثم بدأنا حوارًا طويلًا حول ظروف نقلى وطبيعة تخصصى وغيرها من القضايا، لاحظ الرجل تحفظى بشأن أسباب نقلى من رئاسة مجلس الوزراء؛ فطالبنى بالمصارحة التامة، حتى يستطيع أن يوفر لى ظروف عمل مناسبة.

بعدها أخذ فى الحديث عن نفسه، ومواقفه السياسية بإسهاب، فعرفت أنه ينتمى بصلابة إلى حزب الوفد الجديد والتيار الليبرالى المصرى الحقيقى، قبل أن تغزو جماعات الليبراليين الجدد ـ الموالين والذين تربوا فى أحضان الولايات المتحدة ـ الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية المصرية بدعوى الليبرالية.

وعندما رويت للرجل حقيقة الموقف، ومعارضتى للنظام والحكم، وانتمائى لتيار اليسار المصرى سياسيًّا وثقافيًّا، أبدى الرجل ترحيبًا كبيرًا بى، وفجأة قرر أن أكون أحد أعضاء فريق مكتبه، فى البداية ظننت أن الدافع وراء ذلك هو رغبته فى وضعى تحت رقابته المباشرة، ثم يومًا بعد يوم اكتشفت شيئًا آخر تمامًا.

لقد أعجب الأستاذ «أحمد كمال فهمى» على ما يبدو ـ بعقلى السياسى، ولم يكن أحد من الموظفين فى الجهاز يجرؤ على تناول الأمور السياسية بحرية، فوجدها الرجل

فرصة لتناول الشئون السياسية يوميًّا معى فى مكتبه، بالإضافة إلى تكليفى ببعض الدراسات الاقتصادية حول صناعة النسيج، أو غيرها من الموضوعات الاقتصادية، أو الإدارية فيما بعد.

وللحق والحقيقة، إذا كنت مدينًا لأحد ممن سمحوا لى بالمعرفة والخبرة فى مجال الإدارة، فهو هذا الرجل دون سواه، لقد منحنى هذا الرجل الكريم، فرصة عمرى فى القراءة بعمق والإطلاع بشغف على كل ما يتعلق بالإدارة الحكومية، وأخطبوطها الممتد، فعكفت طوال أربع سنوات كاملة أمضيتها فى وجوده ـ وقبل تقاعده لبلوغ السن القانونية ـ فى قراءة كل ورقة أو مقال، أو دراسة فى الدوريات العربية والمصرية المتخصصة فى مجال الإدارة الحكومية (دوريات الإدارة، والتنمية الإدارية، ومجلة الإدارة العامة الصادرة من الرياض)، علاوة على مئات الدراسات التى أعدتها الإدارات المركزية المختلفة بالجهاز ـ والتى كانت تزيد عن ثمانى عشرة إدارة مركزية ـ والتدقيق فى عمليات «الطبخ» الإحصائى التى تقوم به الإدارة العامة للإحصاء الوظيفى التابعة لمركز المعلومات، فاستطعت خلال تلك السنوات أن أختزن تلك المعلومات، وأن أكون بعد ذلك واحدًا من أبرز العاملين والباحثين فى هذا الحقل، وقدمت للمكتبة العربية عددًا كبيرًا من الكتب فى هذا التخصص.

ومن خلال حوارنا ـ شبه اليومى ـ فى قضايا الوطن والسياسة، توثقت علاقتنا معًا؛ مما حرك فى الوسط الوظيفى تلك الأحقاد والضغائن التى كنت فى غنى عنها، ولكن وجوده أعفانى من بعض متاعبها، ولهذا حديث ذو شجون.

□ □ □